

دمعة الروح

« على المفرد الصامت »

« كان لي كنار صغير أحببته بكل »
 « ما في فؤادي من الحب . دنوت من »
 « قفصه في صباح ذات يوم فوجدته ميتاً »
 « فبكيته وندبته » — مي —

ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود ، وما أتعس القلوب الشديدة التأثر ،
 يمرّ النسيم العليل على الأزهار النضرة فتتمزق بوطنه اللطيف أثوابها
 وتنتثر وريقاتها . هكذا يكفي لاستمطار العبرات ان يلامس الألم بأطراف
 بنانه أثير الروح الموحدة . وما الدموع الهاطلة من الاجفان الأحسرات
 قديمة كامنة في طيات الفؤاد ، أوقدت شعلتها يد سوداء — يد الكذب
 والافتراء ، وقد زاد الانفراد والتأمل في اشتعالها
 من الرجال من يكتفون بالوجاهة والمجد والفخر ، ومن النساء من
 لا يفهمن الحياة الا بالزينة والغنى وارتفاع القدر

اما انا فلا هذه العطايا تغرتني ، ولا تلك المواهب تستهويني . شيء
 واحد جميل في نظري وهو ما يشترك في تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم
 اكبر من القلب ، شيء واحد ينبه اعجابي ، وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر
 والدنيا — هو زهرة نادرة المثال غرستها يد الوفاء في حدائق الاخلاص
 الصافي ، شمس الذكاء والمعرفة تحييها ، ومياه العواطف السامية العذبة تسقيها
 ما أتعس القلب الحساس وما أليته لاستحكام الجروح في ثنياته ١١



طائر صغير نسجت اشعة الشمس ذهب جناحيه ، وانحنى الليل عليه
فترك من سواده قبلة في عينيه . ثم سطت عليه يد الانسان فضيقت دائرة
فضائه وسجنته في قفص كان يئته في حياته ونعشه في مماته

طائر صغير أحببته شهوراً طوالاً . غرد لكآبتي فاطربها . ناجى وحشتي
فأنسها . جاور روحي فأخاها . غنى لقلبي فأرقصه ، ونادم وحدتي فلأها أحياناً
امتزج ذكره في دقائق حياتي فأصبح عندي بمنزلة صديق لاتصاني
به اللغة ولا يقربني منه التفاهم الروحي ؛ بل يعززه الي حضوره الدائم وان لم
يبال هو بحضوري ، وصوته الرخيم وان لم يغرد الا لأن التفريد من طبعه ،
وسروره الذي لا يعرف الكآبة ، واصطباره على ضيق الفضاء واقتناعه بما
قدّره من النور والهواء

عندما كانت تبكيني الآلام كنت أريه مندبلي مبللاً بالدموع فيعرض
عني . ان الدموع تعقب ظلمة الاحزان كما يعقب الندى ظلام الليل ،
وروح الطيور نور مغرّد فكيف يفهم النور الظلام ؟

كنت أنظر اليه مشيرة بأصبعي الى الاثير البعيد لعلني أرى منه
زفرة تنبئني عن لوعة في قلبه غير انه كان يغمز علي قضبان عشه الصغير
غير مبال بي كأنه يقول : « النور لا ينظر الى الشمس والقلب لا يحدق
بالروح لان كليهما واحد . أنا لا أنظر الى الأثير لأني نقطة منه . اني
أسكنه وان بعدت عنه ، كالشاعر الذي يظل جوهر نفسه سابحاً في سماء
الجمال وان خاله الناس جالساً بينهم مصغياً الى أحاديثهم »

واذ كنت آتية بالأزهار نازعة عنها وريقاتها فارشة بها أرض القفص
لعلي أرضيه كان يدوسها باهمال متابعاً تغريده ، كأنه فيلسوف لا يكثر
للصغائر وان كانت جميلة المظاهر ، ولا يعمل في حياته الا بما يشغل أفكاره
وينبه قوى البحث والتنقيب في فؤاده

في الصباح كنت أفتح عيني فيستقبلني بالغناء وتسيل موسيقى ألقانه
على قلبي فتذيبه وتسكره في آن واحد

كنت أجلس للدرس والتجوير فتشتمت نفسي أحياناً من عبوسة
الكتب ، ويثقل قلبي في يدي كأنه صولجان تنازل عن ملكه ، فيأخذ
كناري في الزقزقة والتغريد وتأتي جماعة طير من الخارج وتضم تغريدها
الى تغريده كما تمزج الا لحن في طيات الامواج . فتبتسم الافكار على
صفحات الكتب امام ناظري ، ويترنح اليراع بين أناملي ، ويتمايل تمايل
الصفصاف بقرب الغدير ، وتجلي الغيوم عن فؤادي وتطرب روحي

وفي المساء كان يصمت الكنار اجلالاً لقداسة الظلام فيخفي رأسه
بين جناحيه ويجمد جمود المفكر . اذ ذاك تأتي بنات خيالي محلولة الشعر
وورد الابتسام مزهر على شفيتها ، ومصباح الشعر متقد في يمينها . فتعقد
حلقة وتدور راقصة حول أحلامي ، وتغني أناشيد على ألحان سرية
كأعماق اللجج ، أناشيد غريبة لم يسمعها الا خيال روحي المتموج بين تلك
العذارى الراقصات ، ولم أفهمها الا بحاسة سادسة تولد في قلب الشاعر
في ساعات الوحدة والكتابة . بينا ملوك الجوزاء تطل من أعالي علاها
ناظرة الي من نافذتي ، والكنار يرقبني بعينه المخفيتين تحت جناحيه الذهبيين



والآن انظر الى القفص !

لقد صمت الطائر المغرد ، والشعاع المحيي تجمده ، فلا ترى في القفص
الأ قليلاً من الشمس المائتة !

مات الصغير المغرد ، مات صغير حشاشتي !

مات قبل غروب الشمس وقبل انقضاء الربيع ، ولا يبقى في نفسي
الأ أثر من ذلك اللحن البديع !

شعاع ذهبي اطل حيناً واختفى في كبد الآفاق

ابتسامه نوراً شرقت وما لبثت أن تبددت

نور فكر ضياء ثم اضمحل في لجج العدم

وردة أثير تنفست فعطرت واسكرت ثم ذبلت

نعمة حب تموجت ساعة ثم تلاشت في هاوية السكينة

صديق صغير غرد فاطربني وسكن بجوار روحي فأ نسني ولما ألم قلبي

العالم بدناءته وكذبه غنى طائري فانساني قباحة البشر وغشهم وجعلني

أفكر في كل حسن بهي

هذه قيثارتى فقدت أحد أوتارها فناحت بلا بل أنغامها

فأ أتس القلوب الشديدة التأثر ، وما أكثر مرارة الجرح الصغير

الذي يفتح جراحات كبيرة !!

